وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٩﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٧٠﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧١﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

أثاما: الأثام: جزاء الإثم (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن من علامات عباد الرحمن أنهم لا يشركون بالله شيئًا، ولا يقتلون نفسا حرمّها الله إلا وفق أوامره تعالى كأن يقتلوا أحدًا خلال الجهاد أو يقتصّوا من القاتل.

هذه العلامات أيضًا نجدها في حياة النبي ﷺ وأصحابه بشكل بارز جدًّا. لقد قدّموا في سبيل نشر التوحيد تضحيات يرتعد قلب المرء بقراءتها في صفحات التاريخ. لقد قُتلوا بجريمة الإيمان بالله الأحد، وسُلبت أموالهم، واغتُصبت نساؤهم، وأُخرجوا من أوطانهم وديارهم، وطرحهم الكفار في الشمس على الرمال المحرقة ووضعوا على صدورهم أحجارا ثقيلة ثم قفزوا عليهم بالنعال. لقد حاولوا إكراههم على عبادة أصنامهم اللات ومَناة وعُزّى، ولكنهم كانوا نشوانين من حب الله تعالى، فلم تخرج من أفواههم إلا كلمة واحدة "الله أحد". لقد عرض كفار مكة على النبي ﷺ نفسه السيادة والمُلك على أن لا يعيب أصنامهم، ولكنه ﷺ رفض عرضهم بكل احتقار، و لم يتحمل الإساءة إلى توحيد الله تعالى لحظة واحدة. بل قال ذات مرة: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أمتنع عن إعلان توحيد البارئ تعالى ما فعلت حتى ينصر الله تعالى هذا الدين أو أهلك دونه. (المواهب اللدنية الجزء الأول ص ٤٨، والطبري الجزء الثاني ص ٤٠٧-٤١٠)

ثم إن أعز صحابته قد تعرّضوا أمام عينيه لأشد أنواع التعذيب والاضطهاد لجريمة الإيمان بالتوحيد فقط. كما تعرّض النبي ﷺ نفسه وأقاربه للأذى المتواصل، ولكنه رغم كل هذا التعذيب والأذى تصدّى لكل قوم عادَوا التوحيد. لقد تصدى لمشركي مكة الذين كانوا يعبدون مئات الأصنام، وتحدّى المسيحيين الذين قالوا المسيح ابن الله، وعارض اليهود الذين قالوا عُزَيرٌ ابنُ الله، وحارب المجوس الذين عبدوا النار، حتى جعَل التوحيد غالبًا ليس في الجزيرة العربية فقط بل في العالم كلّه، وأتى بعَبَدة الأصنام إلى عتبة الإله الواحد الأحد. ثم لما قرُب أجله ﷺ كان يتقلب يمينًا وشمالاً من شدة الكرب والاضطراب، ويقول: "لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أوليائهم مساجد". (البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ). كذلك أوصى أصحابه وقال: ألا لا تتخذوا قبري مسجدًا، ولا تنسوا مكانتي

الحقيقية، فإني لست إلا بشرا.* وكان تعليمه وتعهّده بصحابته أنك تسمع اليوم صوتًا ينطلق من كل قرية ومدينة في ضوء النهار وظلمة الليل خمس مرات يقول: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله". باختصار فإن النبي ﷺ وأصحابه قد استمسكوا براية التوحيد بكل قوة، فلا تزال حتى اليوم ترفرف خفاقة عالية في العالم كله، مما يجعل الكافرين يحترقون كمدًا وحسدًا.

إذًا، فمن أكبر علامات عباد الرحمن أنهم لا يقتربون من الشرك بتاتًا، ويبذلون كل محاولة مشروعة لنشر توحيد الله تعالى في الأرض، لأن الشرك يتنافى تمامًا مع صفة الله الرحمن.

كما بين الله تعالى أن من علامات عباد الرحمن أنهم لا يقتلون أحد بغير حق، وقد تجلّت هذه الميزة في الصحابة الأطهار بكل عظمتها وجلائها. لقد عملوا بهذا الحكم بكل حيطة وحذر، فبرغم أنهم كانوا يقاتلون أممًا كانت تسعى لتغيّر دينهم بحد السيف إلا أنهم لم يرفعوا سيوفهم إلا على الذين يشتركون في الحرب ضدهم بصورة عملية، فلم يشهروا سيوفهم على امرأة ولا على طفل، ولا شيخ، ولا راهب، ولا قسيس، ولا باندت هندوسي، إذ كانوا يعلمون أن الإسلام إنما يسمح لهم بقتال الذين يقاتلونهم، أما الذين لا يقاتلونهم فلا يبيح لهم قتلهم وإن كانوا ينتمون إلى الشعب المحارب. إنك ترى اليوم القوى العظيمة التي تدعي في العالم أنها حاملة لواء العدل والإنصاف وأن وجودها ضمان للسلام العالمي، ولكنك تجدها تهدد أعداءها بالقضاء عليهم بالأسلحة الذرية، بل إنها بالفعل قد ألقت القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي في الحرب العالمية الثانية وقتلوا مئات الآلاف من اليابانيين الأبرياء، ذكورا وإناثا وأطفالا. بل أُشيد تصرُّفها هذا واعتُبر إنجازًا عظيمًا لقيام السلام في العالم. ولكنك لن تجد أي ظلم كهذا في زمن الرسول ﷺ وخلفائه

* أقرب ما وجدناه إلى هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: "لا تتخذوا قبري وثناً يُعبد". (شرح النووي لصحيح مسلم: كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه). *(المترجم)*

الراشدين. فلم يقتلوا الأبرياء من الرجال والنساء والولدان حتى في حالة الحرب. ولكن المؤسف أن هذه الشعوب التي لوثت أيديها بدماء مئات الآلاف من الأبرياء تُعدّ رمزًا للعدل والسلام، أما المسلمون الذين لم يدوسوا نملة واحدة تحت أقدامهم، فيسمونهم صعاليك وقطّاع طرق! فانظُرْ إلى مدى ظلمهم وإجحافهم!

ثم يقول الله تعالى إن من علامات عباد الرحمن أنهم لا يزنون، ومن يفعل ذلك يرى وبال عمله في هذه الدنيا من خلال خزي وعار وأمراض شتى، أما عذابه في الآخرة فيكون أشد من ذلك، إضافةً إلى ما يلقاه هنالك من خزي كبير.

لقد بيّن الله تعالى حرمة الزنى بكلمات أخرى فقال ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾(الإسراء:٣٣)، بمعنى أن الزنى أوّلاً ينجّس قلب صاحبه إذ يلطّخه بالشعور بالجريمة والتفكير بالخيانة. ثم إن الزاني يتبّع طريقًا خاطئًا لتحقيق الهدف الذي من أجله جُعلت العلاقات بين الرجل والمرأة، ذلك أن الغاية من الشهوة الجنسية هي استمرار النسل وبقاؤه، وهذا لا يتحقق بالعلاقات غير المشروعة، إذ لا يبقى النسل محفوظا أو يصبح مشتبها، فثبت أن الهدف الحقيقي لا يتحقق باتباع هذا الطريق، ولو سلمنا جدلا أنه يتحقق فهل من العقل أن يترك المرء طريقا صحيحا ويتّبع طريقا خاطئا لتحقيق الهدف؟ غير أن الذين يتوبون ويتحلون بالإيمان الحقيقي مكان الإيمان التقليدي، ثم يعملون الصالحات كما يقتضي إيمانهم، فسوف يغيّر الله تعالى سوء ذكرهم إلى ذِكرٍ حسنٍ، ويبدّل ذلّتهم عزّة، ويبدل آلامهم إنعامًا، لأنه تعالى كثير المغفرة وعظيم الرحمة. وعلامة من يتوب ويعمل الصالحات أنه لا يتوب باللسان فقط بل يميل بقلبه إلى الله تعالى باستمرار.

لقد أكّد الله تعالى هنا على أهمية التوبة من أجل غفران الذنوب، وبيّن أن من المُحال بدونها أن يوفَّق المرء للإيمان الحقيقي والعمل الصالح. ولكن كثيرا من الناس يجهلون حقيقة التوبة، ويظنون أنهم لو ردّدوا كلمة التوبة بلسانهم مرارا فقد صحّت توبتهم. مع أنه لا بد للتوبة الصادقة من سبعة شروط، وما لم تتوافر هذه الشروط كلها لا يمكن أن تُسمى توبة نصوحا.

والشرط الأول للتوبة أن يذكر الإنسان ذنوبه السابقة ويندم عليها لدرجة أنه يشعر بالخجل حتى من نفسه.

والشرط الثاني للتوبة أن يسعى المرء لأداء كل ما فاته من الفرائض في الماضي. فإذا لم يحجّ من قبل رغم قدرته على ذلك فعليه أن يحجّ الآن. أو إذا لم يؤد الزكاة في الماضي فعليه أن يبدأ في أدائها من الآن إن لم يستطع أداء كل ما وجب عليه من الزكاة في الماضي.

والشرط الثالث للتوبة أن يسعى التائب لإزالة ما يمكن إزالته من ذنوبه السابقة. مثلا إذا كان قد سرق بقرة لأحد وهي لا تزال معه، فليردّها لصاحبها.

والشرط الرابع للتوبة هو أن المرء إذا كان قد آذى أحدًا فعليه بإزالة أذاه وطلب العفو منه. إنه لمن المسائل الروحانية الدقيقة أن الله تعالى قد اشترط لغفران الذنوب التي يرتكبها المرء في حق العباد، أن يطلب العفو منهم، فإذا عفوا عنه فسيعفو الله تعالى عنه ولا يؤاخذه. كان شبلي – رحمه الله – من كبار أولياء الله تعالى، وكان في زمن الخلافة العباسية واليًا على بعض المناطق. فذهب ذات مرة إلى بغداد لاستشارة الملك، وتصادف أن أحد كبار القواد كان قد رجع من ايران بعد مهمة عسكرية ناجحة، فعقد الملك في بلاطه احتفالاً خاصًا على شرفه ليُلبسه خلعة فاخرة. واتّفق أن القائد كان مصابًا بالزكام يوم الاحتفال، وعندما أُلبس الخلعة ونزل عليه مطرٌ من الورورد والأزهار من كل طرف، عَطَسَ وخرج الماء من أنفه، فأدخل يده فورًا إلى جيبه ليُخرج المنديل، فلم يجده. فأصابه الذعر ونظف أنفه بناحية من الخلعة مضطرًا. فلمحه الملك واستشاط غضبًا وأمر أن تُنزع منه الخلعة وأن يُطرد من البلاط لأنه قد أساء إلى الخلعة الملكية. فنزعت الخلعة منه وأُخرج من البلاط ذليلا مهانا. وكان شبلي – رحمه الله – يرى كل ما يجري، فصرخ صرخة عالية، وأخذ يبكي بكاءً مرًّا. فقال له الملك في حيرة: ما يبكيك يا شبلي؟ إنما سخطتُ على القائد وليس عليك؟ فقام شبلي من مكانه وقال للملك: أرجوك أن تقبل استقالتي. فقال الملك: ماذا تقول؟ وأي استقالة؟ ولماذا؟ قال: أيها الملك: لقد بعثتَ هذا القائد في مهمة خطيرة قبل سنتين من اليوم، فظل يقاتل العدو

ليل نهار والموت يحوم حوله كل حين، وكانت زوجته تقضي كل ليلة خوفا من أن تصبح أرملة. لقد ظل غريبًا عن الأهل والوطن، يبيت في البراري والغابات ويقاسي المصائب والآلام. ثم رجع إليك منتصرًا في نهاية المطاف، فعقدت الاحتفال فرحة بعودته منتصرًا، ومنحتَه هذه الخلعة البسيطة، ولكنه لما نظف بها أنفه مضطرا غضبتَ عليه غضبًا شديدا، ونزعت منه الخلعة، وطردته من البلاط. وإنني لأفكّر أنك لم تتحمل الإساءة لهذه القطعة من القماش التي منحته إياها، فكيف يعاملني ربي يوم القيامة وقد أنعم عليّ بملايين النعم التي أسيء استعمالها كل يوم؟ فأرجوك أن تقبل استقالتي لأني لا أريد أي وظيفة بعد الآن، بل أريد أن أقضي بقية أيام حياتي في عبادة الله تعالى. فقدم شبلي استقالته وخرج.

ثم ذهب شبلي إلى أولياء الله تعالى ليساعدوه على طريق يستغفر به ربه. ولكن شبلي كان شهيرًا بظلمه لدرجة أن جميع الصلحاء الذين ذهب إليهم ليضموه إلى مريديهم لم يتجاسروا على قبول بيعته. فجاء أخيرا إلى الجنيد البغدادي – رحمه الله– فقال له: نعم هنالك إمكانية لتوبتك، بشرط أن تعود إلى المدينة التي كنت حاكمًا عليها، وتذهب إلى كل بيت فيها وتطلب العفو من أهله، فإذا عفا عنك الجميع، ارجع عندي ثانية. فرجع شبلي إلى تلك المدينة، وأخذ يطرق بابًا بعد باب طالبًا العفو من أهله. فظنوا في أول الأمر أنه يمازحهم، ولكنهم لما رأوه يطلب العفو من ناحية ومن ناحية أخرى يريق دموع الندامة على ذنوبه، أدركوا أن حكومة الرب الرحمن قد استولت على قلب هذا الرجل. عندها تغير الموقف كلية، فكلما طلب من الناس العفو قالوا له: لماذا تُحرجنا؟ إنك من شرفائنا الذين يجب علينا احترامهم وتبجيلهم. وهكذا مرّ شبلي بكل بيت يطلب العفو من أهله، ثم رجع إلى الجنيد – رحمهما الله. فلما رأى أنه قد تاب توبة نصوحا قَبِل بيعته، فظل شبلي تحت رعاية الجنيد حتى إنه يُعَدّ اليوم من كبار أولياء الأمة. (تذكرة الأولياء (بالفارسية) ص ٣٦١-٣٦٣)

فمن شروط التوبة أن يطلب الإنسان العفو ممن آذاهم، ويحاول كسب رضاهم قدر الإمكان. ولكن يجب أن نتذكر أن الله تعالى ستّارٌ يظل يستر على الذنوب

الكبيرة لعباده، لذا فعلى المرء أن يستر نفسه بنفسه، ولا يكشف للناس ذنوبه التي قد سترها الله تعالى عنهم. فمثلا إذا كان قد سرق شيئًا من أحد في الماضي فيجب أن لا يذهب إليه ويخبره بأني قد سرقت منك كذا وكذا. إن هذا الاعتراف في حد ذاته إثمٌ. بيد أن هناك ذنوبًا يعرفها الآخرون أيضا، فمثلا إذا كان المرء قد سبّ أحدًا أو ضرب أحدًا أمام الناس، عرفوا ذلك، فعليه بتلافي مثل هذه الذنوب ويطلب العفو من الذين قد آصابهم بأذى.

والشرط الخامس للتوبة أن يحسن المرء قدر المستطاع إلى الذين قد أصابهم بضرر، وإذا لم يستطع ذلك فيَدْعُ لهم بخير على الأقل. لقد كتب أولياء الله الكرام أن المرء إذا أكل مال غيره و لم يستطيع أن يدفع له، فعليه أن يدعو الله تعالى ويقول: يا رب، إني لا أستطيع دفع ماله، فأرجوك أن تعطيه إياه من عندك وتسدّ لي هذا الفراغ.

والشرط السادس للتوبة هو أن يعقد التائب العزمَ على أن لا يقع في الإثم في المستقبل، ويقرر في نفسه بأنه لن يرتكب أي معصية بعد الآن.

والشرط السابع للتوبة أن يرغّب الإنسان نفسه في فعل الخيرات، ويحاول تطهير قلبه كي يقوم بجميع الحسنات في المستقبل برغبة قلبية.

هذه هي الأمور السبعة التي لا بد منها للتوبة الصادقة، وما لم يفِ أحد هذه الشروط كلها لن تكون توبته صادقةً كاملةً.

يظن البعض جهلاً منهم أن باب التوبة يفتح باب السيئة أيضًا، وأن المرء بدلاً من أن يرتقي خُلُقًا يتجاسر أكثر على ارتكاب المعاصي إذ يعلم أنه سيتوب متى شاء ويتصالح مع الله تعالى. ولكنه ظن باطل تماما، وناشئ عن الجهل بحقيقة التوبة. فالظنّ أنه "سيتوب متى شاء" لا يمكن أن يتولد في قلب أي إنسان عاقل إذ لا يدري متى يموت ومتى يتوب لو فاجأه الموت.

كما أن أصحاب هذا الزعم لم يفهموا حقيقة التوبة. الحق أن التوبة ليست بأمر سهل، كما ليس بخيار الإنسان أن يتوب متى شاء؛ ذلك لأن التوبة اسم لذلك التغير العظيم الذي يحدث في قلب المرء فيذيب روحه ويغيّره تماما. وكما ذكرنا فإن

معنى التوبة أن يندم المرء على ذنوبه السابقة ندمًا شديدا ويتصالح مع الله تعالى صلحًا كاملا، ويعقد العزم على إصلاح نفسه في المستقبل. وهذه الحالة لا يمكن أن تحدث فجأة لأنها تكون نتيجة جهود طويلة وكفاح متواصل. لا شك أن هذا الانقلاب قد يحدث فجأة، ولكنه نادرا ما يحدث، كما لا بد أن يكون وراءه تغيّر مفاجيء عظيم مثل البركان يقلب المرءَ رأسا على عقب. ثم إن مثل هذه التغيّرات المفاجأة أيضا ليست في خيار الإنسان.

إذًا، فالتوبة لا تشجع الإنسان على المعصية، بل إنها العلاج الحقيقي للإصلاح وهي السبب القوي الذي يخلّص من القنوط ويبعث على الهمّة وبذل الجهد. وقد وقَع هؤلاء المعترضون في هذه الخدعة نتيجة جهلهم بالعربية وجراء ظنّهم أن التوبة تعني ترديد المرء بلسانه فقط: "ربي اغفر لي ذنوبي"، مع أن طلب غفران الذنوب لا يسمى توبة بل هو استغفار. إن غفران الذنوب نتيجة منطقية للتوبة الصادقة، وبفتح هذا الباب قد أنقذ الإسلام الروح الإنسانية من اليأس والقنوط، بل فتح أمامها الباب على مصراعيه للترقيات التي لا نهاية لها. ذلك لأن الإنسان إذا علم أن باب الرقي مفتوح أمامه على مصراعيه وأن بإمكانه أن يكون طاهرًا ومقربًا لدى الله تعالى، فلا يفقد الهمّة بل يهتمّ بإصلاح نفسه، وينجح في هذه المحاولة في نهاية المطاف، فتتخلّص روحه من الشوائب الدنية وتأخذ في الطيران إلى العالم العلوي.

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

الزُور: الكذبُ؛ الشركُ بالله؛ مجلسُ الغناء؛ ما يُعبَد من دون الله؛ القوةُ؛ لينُ الثوب؛ العقلُ (الأقرب).

كِرامًا: جمعُ كريم. والكريم: ذو الكرم؛ قيل الكريم قد يُطلَق على الجواد وعلى كثير النفع، وقد يُطلَق مِن كل شيء على أحسنِه، كما قيل: الكريم صفةُ ما يُرضَى ويُحمَد في بابه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن من علامات عباد الرحمن أنهم ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾.

والمعنى الأول لهذه الآية هو أنهم لا يشهدون بالزور أي لا يشهدون شهادة الزور.

والحقيقة أن أكبر حسنة بعد التوحيد وأصعب عمل يواجهه الإنسان في الدنيا هو قول الصدق. لقد رأينا آلاف الناس الذين هم رحماء ومنصفون، ولكنهم إذا اضطروا للإدلاء بالشهادة على أنفسهم أو قريب لهم أو صديق، كذبوا في شهادتهم بعض الكذب حتمًا. وقد تفشى هذا المرض في بلادنا على نطاق واسع حتى تجد الناس يحلفون كذبًا بكل جسارة، وإذا لم يقبل حلفهم الكاذب يسخطون. كانت العادة في المحاكم في الماضي أن يحلفوا ممسكين القرآن بأيديهم، وكان هذا يعني أن الحالف يحلف بالنظر إلى الوعيد النازل في القرآن الكريم، وأنه إذا كذب في حلفه فلينزل عليه العقوبة، ومع ذلك كان كثير من الشهود يكذبون في شهادتهم. كان أخونا الأكبر ميرزا سلطان أحمد ﷺ الذي كان يعمل قاضيًا في بعض المحاكم، يحكي لنا خبرته الشخصية* أن كل من أخذ القرآن بحماس قبل إدلائه بالشهادة كان أكثر كذبًا. وكان أخي هذا يحكي لنا أن قضية لأحد معارفه رُفعت في محكمته، فطلب منه صديقه هذا تأجيل سماع القضية ليوم آخر لأن الشهود الذين كان عليه تقديمهم لم يستطيعوا الحضور لسبب، فضحك وقال له: كنتُ أظنك رجلاً ذكيا، ولكنك غبي فيما يبدو. قال: كيف؟ قال: بإمكانك أن تعطي بعض المال لبعض الناس وتحضرهم. فخرج من المحكمة وبالفعل أتى بعد وقت قصير بالشهود الزائفين. يقول أخي: فبدأت أسمع شهادتهم وأضحك وأمازحهم أيضا، إذ كانوا يحلفون كذبًا واضعين القرآن على رؤوسهم. مع أن صديقي هذا قد أتى بهم

* علمًا أن ميرزا سلطان أحمد ﷺ كان أخًا أكبر لحضرة المفسر ﷺ من أُمّ أخرى، وقد حصل هذا الحادث معه قبل انضمامه إلى جماعتنا، حيث لم يصدّق أباه سيدَنا المسيحَ الموعود ﷺ في حياته، بل بايَعَ ودخل في الجماعة في آخر حياته على يد حضرةِ المفسّر ﷺ. *(المترجم)*

كشهود مزيفين بعد أن أعطاهم بعض المال. ولما فرغوا من الإدلاء بشهادتهم قلت لهم: إنكم كذابون، إذ لا علم لكم بالحادث، ولكنكم تكذبون من أجل بعض المال ولا تبالون بالقرآن الكريم أيضًا!

فالأُمة التي قد بلغت هذا المدى من التردّي والانحطاط لا يحقّ لأفرادها أن يقولوا لماذا لا ننتصر في الدنيا، إذ لا يكون الفلاح حليفًا إلا للشعوب التي دأبُها الصدق وقول الحق. لقد رأيت أن الشعوب المسيحية قد تدرّبت على الصدق لدرجة أنها يمكن أن تكذب على صعيد الدول، ولكنها لا تكذب عادة على صعيد الأفراد. يظن الناس أن أهل أوروبا وأمريكا قد أحرزوا التقدّم نتيجة العلم، ولكن الواقع أنهم لم يتقدموا بعلمهم وأسلحتهم، وإنما ازدهروا نتيجة هذه الأخلاق فقط. فلو زرت المحاكم الإنجليزية لوجدت أن القاضي حين يقول للمجرم: هل ارتكبت هذه الجريمة؟ يقول: نعم. ثم يسأله: هل كنت في مكان كذا؟ يقول: نعم. ولكنك لو زرت محاكم بلادنا لرأيت أن السارق الذي تكون الشرطة قد قبضت عليه متلبّسًا، حين يسأله القاضي: هل كنت في مكان السرقة؟ يقول: كلا، لم أكن حتى في تلك الحارة أيضًا. فيسأله: أين كنت؟ فيقول: كنت في مدينة كذا. فيسأله: ألم تقبض عليك الشرطة متلبّسا في ذلك المكان؟ فيقول: إنهم يكذبون، إنما قبضوا عليّ لعداوة قديمة بيني وبينهم. فتراه يكذب من أول كلامه إلى آخره. لا شك أن المجرم في المحاكم الغربية أيضًا يحاول إنقاذ نفسه بخداع واحتيال، ولكنه لا يلجأ إلى الاحتيال بدون داع، أما في محاكمنا فيكذب المجرم بدون داع أيضًا، فمثلاً إذا كان قد سرق فلا علاقة بين سرقته وبين لون الثوب الذي كان يلبسه خلال السرقة، ولكنه سئل مثلا: هل كنت تلبس في ذلك الوقت ثوبًا أسود، فيقول: لا، بل كنت ألبس ثوبًا أحمر؛ أو لو سئل: هل كانت في يدك عصى في ذلك الوقت، يقول: لم يكن بيدي أي عصى أبدًا، بل كان في يدي المصحف الشريف. إذًا، فإنه يكذب الأكاذيب التي لا علاقة لها بالقضية أصلاً، ويرفض كل شيء. أما في المحاكم الأوروبية فتجد أن المجرم سيعترف بـ ٩٩% من الأمور، ويخدع في واحد بالمئة فقط.

لا شك أن ما يحدث في محاكمنا راجع أيضًا إلى الحالة الأخلاقية المتردية في البلاد، فالقضاة الذين تُرفع أمامهم القضايا هم الآخرون لا يدركون أهمية الصدق، إذ يظنون أن المجرم لا يصدُقهم القول إلا قليلاً، وأنه لا يزال يخفي عنهم أمورًا كثيرة. فمثلاً هناك شخص يلطم غيره لطمة واحدة، وإذا سأله القاضي: هل لطمته؟ قال: نعم لطمته ولكنه كان نتيجة غضبي؛ فبدلاً أن يقدر القاضي قول المجرم حيث صدق في بيانه، فإنه يقول في نفسه: لا بد أنه قد لطمه خمس لطمات، ولكنه يعترف بلطمة واحدة فقط. لقد انتشر الكذب في مجتمعنا انتشارًا واسعًا حتى بدأ الجميع، بمن فيهم القاضي والمحامي، يظنون أنه من المستحيل أن يصدق أحد في حديثه مئة بالمئة. ولما كان أقاربهم وأصدقاؤهم أيضًا يكذبون فلا يصدّقون أحدًا وإن كان صادقًا في حديثه، بل يظنون أنه يكذب مثل الآخرين ولو قليلا؛ والنتيجة أن الذي يريد أن يصدق القول يصاب بالخوف والذعر فيكذب.

ولكن على المؤمن أن لا يحفل بما يقول الناس حوله، وإنما عليه أن يرى ماذا يقول ربه. يجب أن يكون لإيمان المرء وزن ومعنى ما دام قد جعل العالم كله عدوا له بسبب إيمانه. وإن أقل ما يتطلب الإيمانُ من المرء أن يعاهد اللهَ تعالى أنه يُؤْثره على كل شيء آخر. ولكنه لو بدأ يُؤْثر الأشياء الأخرى على الله تعالى فكيف يبقى مؤمنًا؟ يريد الله تعالى من المؤمن أن يصدق القول دائمًا، بينما يأمره زملاؤه أن يكذب – حيث يأمرونه حينًا بلسانهم وحينًا آخر بفعالهم، إذ يقول المرء لصاحبه أحيانًا أن يكذب، وأحيانًا يراه يكذب ولا يمنعه من الكذب وهكذا يصبح مؤيدًا للكذب، ولكن الله تعالى يريد منه أن يصدق القول – ولو أنه كذب وأخفى الحق فإنه لم يقدر الله تعالى حق قدره، وبتعبير آخر إنه لم يحاول أن يقيم ملكوت الله في الأرض بل حاول أن يقيم ملكوت الشيطان فيها. وإن ملكوت الله لن تقام في الأرض إلا إذا لم يَخْشَ المرء عند الإدلاء بشهادة صادقة من أبيه ولا ابنه ولا أُمه ولا أخيه ولا صديقه ولا أحد من أقاربه الآخرين. والحق أن الأب لا يتجاسر على قول الكذب إلا لأنه يعلم أن ابنه أو زوجته سيؤيده فيما يقول، أما إذا خاف أنه إذا كذب في شهادته فإن ابنه سيقول أمام المحكمة: إن هذا أبي، ولكنه يكذب إذ

الأمر الواقع ليس كما يقول؛ أو ستقول زوجته للمحكمة: إنه زوجي، ولكن الحقيقة خلاف ما يقول؛ عندها سيترك هذا الإنسان الكذب على الفور. إن المرء يكذب لأنه يدرك أن كذبه سيظل مخفيًا ولن يفضحه أحد من أقاربه بسبب كذبه. إن الأخ يكذب لأنه يعلم أن أخاه سيغطي على كذبه، والابن يكذب لأنه يعلم أن أباه سيؤيده في كذبه، وإن الزوج يكذب لأنه يعلم أن زوجته ستستر عيبه وتصدّقه فيما يقول، وإن الزوجة تكذب لأنها على علم أن زوجها سيقف بجانبها رغم كذبها. ولكنهم لو كانوا صادقين حقًّا لقام الابن ليشهد ضد أبيه، ولقامت الزوجة لتشهد ضد زوجها، وفي هذه الحالة سيخاف كل واحد من قول الكذب لإدراكه أنه لا فائدة من ذلك.

وإن خَلْق هذا الحماس لتأييد الصدق والحق ليس عسيرًا، بل لو عاهدَ كلُّ طفل وشيخ وشاب وذكر وأنثى على قول الصدق ولو أدى ذلك إلى سجنه وحتى شنقه، فستلمسون في أنفسكم انقلابًا عظيمًا في فترة وجيزة جدًا. لا تظنوا أن قول الصدق يؤدي بالمرء إلى الإعدام، كلا، بل إن الذي يصدق الحديث لا يقع فيما يؤدي إلى الإعدام. ولكن الكاذب يظن أن كذبه سينجيه من العقاب، فيتجاسر على ارتكاب الأعمال التي تكون عاقبتها وخيمة جدًّا في بعض الأحيان. أو إن الصادق يعلَّق على المشنقة عندما يرى أن واجبه الديني يفرض عليه أن يضحي بنفسه، وعندها يصعد على منصة الإعدام بكل شجاعة ويقول تعالوا اقتلوني.

مجمل القول إن قول الصدق أمرٌ بالغُ الأهمية، وقد حثّ عليه أنبياء الله تعالى بشكل خاص، واعتبروه جزءًا جوهريًا من أخلاق الإنسان. ولكن الناس اليوم لا يعدّون الكذب كذبًا من أجل مصالحهم السياسية والقومية، بل يعتبرونه ضروريًا، مع أن الكذب يتنافى مع الفطرة الإنسانية. إن الكذب يعني أن تسمع شيئًا بأذنك، ثم تقول: إني لم أسمعه، أو ترى شيئًا بأم عينيك ثم تقول: إني لم أره، أو ترفع شيئًا بيدك ثم تقول: إن يدي لم ترفعه، أو تمشي إلى مكان برجلك ثم تقول: إني لم أذهب إلى ذلك المكان؛ وهذا يعني أنك لا تفنّد غيرك بل تفنّد نفسك، وأي شيء أشدّ خلافًا للفطرة من هذا التصرّف؟ إن الإنسان يمكن أن يشكّ فيما يقرره

بالقياس فقط، ولكن هل يمكن له أن يشك فيما يقوم به بحواسّه الخمس؟ وإنكار ما أتت به حواسه الخمس هو الكذب. إن الذي ينكر ما فعلته حواسه الخمس يكذّب لسانه ويده ورجله وأنفه وأذنه، ومع ذلك يجد متعة كبيرة في هذه الشهادة الـتي يدلي بها ضد نفسه! إذا أمسكت بيدك شيئا، ثم قلت: لم أمسكه، فهذا يعني أنـك تقول ليدك: إنك لم تمسكي بهذا الشيء. ولو ذقت بلسانك شيئا، ثم أنكرت ذلك، فكأنك تقول للسانك: إنك لم تذق هذا الشيء. ولو سمعت بآذانـك شـيئا، ثم أنكرت سماعه، فهذا يعني أنك تقول لآذانك: إنك لم تسمعي أي شيء. فهل هناك تصرف هو أشد غرابة وسخرية مما فعلت؟ ومع ذلك لا يكترث الناس لمثل هـذه التصرفات التي يأتونها، فيكذبون عند الحاجة، ثم يؤيد أصحابهم أكاذيبهم. فمـثلا عندما تُرفع قضية أمام القاضي ضد شخص، يقول ابنه: لم يكـن أبي موجـودا في ذلك المكان، بل كان في قرية كذا. مع أن ما يقوله يكون كذبًا صريحًا.

ويوجد مرض الكذب في النساء بكثرة، بل هن أكثر كذبا من الرجال، ولذلك كان النبي ﷺ يأخذ منهن البيعة على أن لا يأتين ببهتان (الممتحنة: ١٣). وهذا يـدل أن الكذب كان شائعا بين نساء العرب بكثرة. وهذا المرض ينتقل من النسـاء إلى أولادهن، فيتعودون على الكذب. ذلك لأن الولد يقول في نفسه: ما دامت أمّـي تكذب فلماذا لا أكذب؟ بل يبالغ الأولاد في كذبهم إلى أقصى الحدود. يقال أنـه كان هناك صديقان، فقال أحدهما لصاحبه أن يذكر من مآثر عائلته ومفاخرهـا. فقال: كان آبائي من كبار الرؤساء، وكان لجدي حظيرة كبيرة جـدًا، وكلمـا وقعت مجاعة كانت مواشي كل البلدة تأتي إلى حظيرته تأكل فيها وتبيت. فقـال الآخر: كان عند جدي قطعة "بامبو" – خيزران – طويلة جدا، وكلما تأخر المطر عن الناس، ثقب بها السحب فكانت السماء تمطر مطرًا غزيرًا. فسأله صاحبه: أين كان جدك يحتفظ بهذه الخيزران الطويل؟ قال: في حظيرة جدّك!

فهذه القصة تبين لك مدى المبالغة التي يلجأ إليها الصغار في الكذب.

كذلك قرأتُ قصةً ذات مرة بأن طفلة إنجليزية التحقت بالمدرسة. فدخلت معها في صفّها طفلة لأحد صانعي الحلوى، فسألت الطفلة الإنجليزية صـديقتها: مـاذا

يعمل أبوك؟ فقالت: أبي هو حاكم المحافظة. فقالت الأخرى: أما أبي فهو رجل أعمال وبنوك وعندنا عشرات الفيلات. وذات مرة دعت زميلتها إلى بيتها لشرب الشاي، ولم يكن في بيتها أي خدم. فأمرت إخوتها وأخواتها أن يتظاهروا بأنهم يعملون عندها كالخدم في البيت. فأحضرت الكعك والشاي من السوق. وجاءت بنت حاكم المحافظ، وأخذتا تتجاذبان أذيال الحديث. وبينما هما كذلك إذ جاءت إحدى الجارات وقالت في حديثها مشيرة إلى الفتاة الإنجليزية إنها بنت فلان من الإنجليز. فقالت بنت الحلواني: لا هي بنت فلان من كبار رجال الأعمال والبنوك. فقالت الجارة: كلا، بل هي بنت فلان من الإنجليز.

وترى أن الفتاتين لم تقوما بهذه التمثيلية إلا لكي تتظاهر إحداهما للأخرى بأنها من أسرة ثرية.

بيد أنه يجب أن تتذكر أن قول الصدق لا يعني أن يخرج المرء ويحكي للناس كل ما يراه. إن القرآن الكريم قد نهى عن أن يذكر المرء للآخرين بعض الأمور بدون داع. فمن يتحدث بها للناس فإنه لا يصدق الحديث بل ينشر الفتنة والفساد في المجتمع. إنما المراد من قول الصدق أنك إذا قلت شيئًا فيجب أن تقول الحق، وليس أن تقوله للناس في كل حال. فمثلاً إذا دهم اللص بيتك وقال لك: أين مفاتيح خزينتك؟ فلم تخبره بل قاومتَه وهددته ليخرج من البيت فهذا ليس كذبا، ولكنك لو أشرتَ إلى مكان لا توجد به المفاتيح، فهذا كذب. كذلك لو أن شخصًا رأى في غيره عيبًا ثم ذكره في كل مكان، فليس هذا من قول الصدق في شيء، بل هو بُغض وحقد وغيبة. لقد سأل الصحابة النبي ﷺ ذات مرة وقالوا: هل من الغيبة أن نحكي عن شخص ما هو حقّ؟ قال ﷺ: نعم، هذه هي الغيبة. أما إذا عزوت إليه ما هو بريء منه فهو بهتان وافتراء (الترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الغيبة). إذًا فذكرُ عيوب الآخرين للناس ليس من قول الصدق في شيء، بل المراد من قول الصدق أنك إذا أدليت بشهادة أمام القاضي فعليك أن تذكر له الحادث كما هو، وإن أضرّتْ شهادتك بصديقك أو أخيك أو أبيك أو زوجتك. عليك أن تجيب على كل سؤال من القاضي بما هو حق وصدق تمامًا. ومن أجل ذلك أمر الشرع

أن لا يأخذ الشهادة إلا القاضي، لأن الشرع ينهى عن ذكر بعض الأمور أمام الناس. ذلك لأن غير القاضي يمكن أن يسأله شيئا لا تسمح الشريعة بالسؤال عنه، وهذا سيؤدي إلى الفتنة في المجتمع.

إذًا، فليس المراد من قول الحق أن تذكر كل ما تشاهده، كما ليس من قول الحق أيضا أن تذكر ما تشاهده لكل واحد. بل إذا سألك غير القاضي سؤالا عن حادث ما فقلْ له: لا أخبرك. كذلك إذا رأيتَ أحدًا يرتكب خطأً فاستُرْ خطأه، لأن ستر خطئه ليس خلاف قول الحق، وإنما تخالف قول الحق إذا سألك القاضي أو من ينوبه أو الذي أجاز له الشرع أخذ الشهادة عن حادث ما، فلم تصدُق له القول. ولكن إذا لم تُدعَ للإدلاء بالشهادة، و لم تخبر الناس عن الحادث فلن يُعَدّ هذا خلافًا لقول الحق وإن كان الحادث صحيحا، بل تنشر بذلك الصلحَ، وتحمي نفسك وقومك من الفتنة والفساد.

٢- والمعنى الثاني للزور هو العقلُ، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أنهم يدلون بالشهادة بحسب الحقائق الواقعة وليس بناء على القياس فقط. ولكن هذا لا يعني أنهم لا يشهدون بالعقل.

٣- والمعنى الثالث للزور هو القوّة، وعليه فقوله تعالى ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ يعني أن عباد الرحمن لا يشهدون مغرورين بقوتهم ليهينوا الضعفاء ويذلّوهم.

٤- والمعنى الرابع للزور هو الشرك، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أن عباد الرحمن لا يحضرون مجالس الشرك.

٥- والمعنى الخامس للزور هو مجلس الغناء، وعليه فقوله تعالى ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ يعني أنهم لا يحضرون مجالس الموسيقى والغناء لكي يظلّوا محفوظين من تأثيرها السامّ، حتى لا يصبحوا غافلين عن الله تعالى فيتّبعوا الأهواء. وبناء على ذلك قد نصحتُ جماعتي بأن لا يشاهدوا السينما، لأن فيها الموسيقى والغناء التي تجعل قلب الإنسان غافلا عن الله تعالى. لقد كان الموسيقى والغناء مقتصرة على المسارح في الماضي، ولكنها قد انتشرت على نطاق واسع منذ اختراع السينما، لأن المسارح كانت في أماكن محددة، وكانوا يُحضرون فيها كبار المغنين والموسيقيين بنفقات

باهظة، ثم لم تكن هذه المسارح تقدم إلا عرضًا واحدًا وفي مكان واحد، ولكنهم ينسخون الآن من عرض واحد مئات الأفلام وينشرونها في كل البلاد، فأصبح ضرر السينما أكثر من المسارح.

لقد قال النبي ﷺ إن الغناء والموسيقى وغيرها كلها أداة الشيطان يغوي بها الناس. ولكن المؤسف أن المسلمين نسوا هذه الوصية الإلهية الواضحة، وانغمسوا في الملذات وأنواع الترف إبان غلبتهم، وكانت النتيجة أنهم فقدوا الحكم. لقد دُمّرت الخلافة العباسية نتيجة الغناء والموسيقى، حيث كان هولاكوخان يتقدم مع جيشه إلى بغداد بسرعة شديدة، بينما كان الملك العباسي المعتصم بالله مشغولا بالرقص والغناء، ويقول لمن حوله مرة بعد أخرى أن يحضروا له الراقصات والمغنيات، إذ لا أحد يستطيع الهجوم على بغداد، ومن هجم عليها فلن يدمر إلا بنفسه. ولما وصل هولاكوخان إلى بغداد فإن أول ما فعله هو أنه قتل الملك وولي العهد، ثم دكَّ بغداد دكًّا دكًّا، وقتل مليونًا وثمانمئة ألف نسمة من أهلها. (الفخري: آخر الخلفاء اللاهين: خلافة المستعصم بالله، وتاريخ العرب، الجزء الثاني: ص ٥٨١).

كذلك لم يُقض على الإمبراطورية المغولية في الهند إلا بسبب الموسيقى والغناء. لم يكن الملك "محمد شاه رنغيلا" يسمى "رنغيلا" إلا لشدة ولعه بالموسيقى والغناء والمجون.

كما أن آخر الملوك المغول على الهند "بهادر شاه" لم يهلك إلا نتيجة انغماسه في الموسيقى والغناء. كانت القوات الإنجليزية تتقدم نحوه وتحاصره من ناحية كولكتا وإله آباد وكانفور وميرث وسهارنبور، ولكنه ظل مشغولا بالموسيقى والغناء في بلاطه، وكانت النتيجة أن قطع الإنجليز رؤوس اثني عشر من أبناء الملك ووضعوها في صينية كبيرة وقدّموها له قائلين: هذه هديتنا لك. (بهادر شاه ظفر اور انكا عهد (بالأردية): باب ١٤ شاهي خاندان كى بپتا ص ٥٨٥)

و لم يكن وراء انتهاء حُكم المسلمين في الأندلس أيضًا إلا الغناء والموسيقى. وكذلك انتهى حكمهم في مصر لنفس السبب حيث كان الملِك الفاطمي مشغولا بالغناء والموسيقى حين هاجم السلطان صلاح الدين الأيوبي مصر.

وبرغم هذا الدمار الهائل الذي حل بالمسلمين في الماضي فإنهم لا يزالون توّاقين إلى الغناء والموسيقى والسينما، ولا يريدون أن يأخذوا العبرة من تاريخهم!

مع أن الله تعالى قد صرّح في قوله ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أن المسلمين إذا أرادوا أن يدخلوا في عداد عباد الرحمن، فمن أكبر واجباتهم أن يتجنبوا مجالس الغناء والموسيقى، وأن يرغبوا في حب الله تعالى، وإذا فعلوا ذلك نجحوا، وإلا فلن يكونوا في مأمن من النتائج الوخيمة للموسيقى والغناء.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾.. أي أن من علامات عباد الرحمن أنهم إذا مروا باللغو من الأمور لا يقعون فيها جريًا وراء الملذات الدنيوية كما فعلت أمة المسيح عليه السلام حيث نسوا ذكر الله تعالى وانشغلوا بالرقص والغناء والموسيقى. بل إن عباد الرحمن يمرّون بمثل هذه الأماكن بوقار ويتغلبون على أهوائهم مُؤْثِرين رضى الله تعالى على ملذات الدنيا.

وعندي أن من أكبر اللغو الموجود في هذا العصر هو **السينما**، فإنها شيء مدمّر لأخلاق القوم، كما أنها تهدد أمن البلاد من حيث القضايا الاجتماعية. لقد قرأت قبل فترة أن كثيرا من القرى في فرنسا قد صارت خرابًا لأن الناس أخذوا يهجرونها إلى المدن ليُشبعوا رغبتهم في السينما، فقررت الحكومة الفرنسية وضع الحدّ لهذه الهجرة.

بيد أنه مما لا شك فيه أن سوء استعمال السينما في هذا الزمن هو الذي قد جعلها مضرة ومدمرة للغاية. ولكن لو أنتج أحد فيلمًا للمناظر الخلابة لجبال "هملايا" مثلا ليرى الناس ما في تلك الجبال من ثلوج وأشجار وينابيع دفاّقة وصخور وكهوف وقمم، بدون أن يكون في هذا الفيلم شيء من الموسيقى، فهذا جائز تمامًا إذ سيساعد على التقدم العلمي. كذلك لو أنتج أحد فيلمًا تبليغيًا أو تعليميًا بحتًا لا تشوبه شائبة من الغناء والموسيقى أو المشاهد الخليعة الأخرى، فإنني سأسمح برؤية هذا الفيلم.

كذلك يجوز مشاهدة الأفلام العلمية البحتة والمنتجة من قبل المؤسسات التربوية أو الحربية التي تكون عبارة عن مناظر الغابات والأنهار أو المشاهد الحربية أو كيفية العمل داخل المصانع، لأن مثل هذه الأفلام تساعد على الرقي العلمي. وهناك بعض الأفلام الصناعية والزراعية التي تعلّم الفلاحين طرقًا شتى للزراعة، وعلاج المزروعات من الأمراض الفتّاكة، واستعمال الاختراعات الحديثة، كما تعرّفهم على البذور الجيدة وطريقة إنتاجها. هذه الأفلام لا بأس بها وهي ليست من اللغو في شيء، لأنها تزيد المرء علمًا واستنارة وخبرة، فيتّخذ التدابير والوسائل التي تساعده على تحسين الإنتاج التجاري والصناعي والزراعي بحسب مقتضيات العصر.

بيد أنه لا يجوز إنتاج فيلم غير واقعي. فمثلا لو أنتج أحد فيلمًا حول حروب نابليون بونابرت فهو فيلم زائف ولا يجوز إنتاجه رغم كونه فيلمًا تاريخيا. والمراد من الفيلم الجغرافي والتاريخي هو الفيلم الحقيقي لا الفيلم الزائف الباطل.

إن الأفلام التي تشاهَد في هذه الأيام في شتى المدن الكبيرة والتي تتكون من عنصر الغناء والموسيقى هي لعنة بغيضة للغاية، حيث حولت أولاد المئات من الأسر الشريفة إلى مغنّين ومغنيات وراقصات. إن من عادتي قراءة المجلات الأدبية، وقد وجدت أن الشباب الذين يحبّون السينما والذين لهم صلة بها تحمل مقالاتهم طابع السخرية عادة، وتكون أخلاقهم ومزاحهم رديئة بشكل مذهل. ذلك لأن أصحاب السينما لا يكون لهم هدف إلا كسب المال لا إصلاح الأخلاق، فكي يكسبوا المال يقدمون قصصا لاغية وأغاني تافهة تخرب أخلاق القوم تدميرا. فالشرفاء الذين يذهبون لمشاهدة هذه الأفلام تفسد أخلاقهم كما تفسد أخلاق أولادهم وأزواجهم الذين يأخذونهم إلى السينما أو يحكون لهم ما شاهدوا في الفيلم.

مجمل القول إن السينما تؤثر على أخلاق القوم تأثيرًا مدمّرا، بحيث إنني أرى أن روح كل مؤمن مخلص صادق يجب أن تحترز من السينما تلقائيًا وإن لم أمنعهم من ذلك.

يقول بعض من جماعتنا أنه ليس في الأفلام الإنجليزية أي لغو، فاسمح لنا بمشاهدتها. والواقع أنه لا يخلو أي فيلم إنجليزي من الموسيقى والغناء اللذين قد نهى

الإسلام عنهما نهيًا شديدا. والواضح من هذه الآية القرآنية أن المـــرء لا يمكـــن أن يدخل في عداد عباد الله تعالى ما لم يتجنّب مجالس الموسيقى والغناء.

والشيء الثاني الذي هو من أكبر أنواع اللغو الميسرُ. لم يعد الميسر في هذه الأيام من المشاغل المحبوبة عند أهل أمريكا وأوروبا فحسب، بل أصبح جزءًا لا يتجزأ عن حضارتهم. لقد أصبح الميسر وثيق الصلة بكل مجال من حياتهم بطريق أو آخر. أما الميسر العادي قد أصبح عادة يومية لهم بعد مجالس الطعـــام، ولكنـــهم يلعبـــون "اليانصيب" بكثرة بحيث إن ربع أعمال التجارة أيضا تصبح ضحية للميســـر. إن الجميع من أكابرهم إلى أدانيهم يلعبون الميسر يوميًا وليس من حـــين لآخـــر. وإن نوادي الميسر ربما هي أغنى النوادي كلها. ففي نادي "مونتي كارلو" في إيطاليـــا – وهو المكان الذي يقامر فيه أثرياء العالم – تخرج البلايين من أيدٍ وتصـــل إلى أيـــدٍ أخرى في يوم واحد. قد كثر فيهم القمار لدرجة أنه لن يكون من الخطأ القول إننا لو أخرجنا الميسر من حضارتهم الجديدة لترك فراغًا كبيرًا لن يُسَدّ بأي شيء آخر. وذلك برغم أن القمار شيء خطير للغاية لأن المقامر يخسر أحيانًا كل ما يملـــك في نصف ساعة، وأما إذا ربح فيتسبب في دمار آلاف البيوت الأخرى. ثم إن المقـــامر يكون معتادًا على إضاعة المال، إذ قلما تجد بين المقامرين من يحافظ على مالـــه. إن جميع المقامرين عادة يبذّرون أموالهم بدون هوادة، لأنهم يظنون أنهم لـــن يحتـــاجوا لبذل جهد كبير لكسب المال؛ وكأنهم يدمّرون الآخرين من جهة، ومـــن جهـــة أخرى لا ينتفعون من أموالهم أيضًا بشكل سليم، وليس ذلك إلا لأنهم لا يضطرون لبذل المشقة والعناء في كسب المال.

ثم إن الميسر يضعف العقل والفكر أيضًا، حتى إن المُقامر يكون مستعدًا لتدمير الأشياء التي لا يقبل أحد من العقلاء المراهنة عليها محاولةً منه لكسب الرهان. فإن التاريخ القديم للديانة الهندوسية يبين لنا أن "يدهشر" – وهو ابن عمّة "كريشنا" – خسر زوجته في القمار. (مها بهارت)

فالميسر جدُّ لغوٍ يجب اجتنابه دائمًا.

والشيء الثالث الذي يدخل في اللغو في هذا الزمن هو الرقص. كان الشعب الإنجليزي يستقبح الرقص في زمن من الأزمان، ولكنه قد مال إليه الآن شيئًا فشيئا. ففي البداية كان الرجل والمرأة يرقصان ويد الواحد في يد الآخر، ثم أخذا يرقصان وجهًا لوجه، ثم تقدموا وأخذت المسافة بين أبدان الراقصين تقصر فتقصر حتى تلاشت الآن في كثير من البلاد. إن الله تعالى يأمر النساء في القرآن الكريم ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾(النور:٣٢).. أي لا يضعن أقدامهن على الأرض خلال مشيتهن بحيث تظهر زينتهن. والواضح أنه لا مجال لإخفاء الزينة أثناء الرقص. إذًا فالرقص أيضا من أكبر الأسباب التي تؤدي إلى تدمير المال والأخلاق، إذ يوجد في الدنيا أناس يضحون بكل ما يملكون من مال وعقار من أجل أن يشاهدوا رقصَ بغيةٍ أو قَينة معينة مرةً واحدة. كما يوجد هناك أناس يضحون بأموالهم الغالية على ما يحكي لهم ساردو القصص والنوادر من طرائف وظرائف.

إذًا فكل نوع من الرقص لعنةٌ بغيضةٌ كالغناء، حيث يدمّر أخلاق الشباب وأموال القوم.

والشيء الرابع الذي هو من اللغو التدخينُ ويجب تركه. إن بعض الناس يبدءون التدخين بحجّة أنه يساعدهم على مرض الإمساك، ولكنهم يتعودون على ذلك لدرجة أنهم لا يدخلون المرحاض إلا مع "الشيشة"، ثم لا يفرغون من حاجتهم الطبيعية إلا بعد أن يدخنوا ثلاث "تعميرات".

ثم إن المدخّنين يصابون دائمًا بأمراض الحلق والصدر والسعال، ذلك لأن الشيء الذي يخدّر الجسم يُضعف الأعصاب في نهاية الأمر، ويسبب أمراضًا كثيرة. ومع ذلك قد راجت "النرجيلة" والسيجارة في هذا العصر رواجًا كبيرًا حتى ترى الشباب بل الأطفال أيضًا يدخنون. وبما أنه شيء مسكرٌ فيصبحون مدمنين عليها

بالتدريج، حتى إذا لم يجدوا النرجيلة أو السيجارة أو "نَسْوار"* يجرون هنا وهنـــاك كالمجانين.

أتذكر جيدًا أننا كنا ذات مرة نصعد بعض الجبال، وكان بين رفقائي شـــخص من الأفغان، وكان يتعاطى "نسوار". ولكنه، لسوء حظه، نسي علبة نســـواره في البيت، فرأى أحد العمال الكشميريين قادمًا وقد حمل على كتفـــه حزمـــة مـــن الخشب. فتقدّم إليه الأفغاني وأخذ يتوسل إليه في تواضـــع وإلحـــاح: يـــا أخـــي الكشميري، هل عندك نسوار؟ فلم أتمالك نفسي وبدأت أضـــحك، وأقـــول في نفسي: إن هذا الأفغاني المتكبر الذي لا يخضع رقبته لأحد، كيف جعلـــه إدمانـــه يتوسل إلى الكشميري متواضعًا متذللاً.

إن بعض الإخوة الذين كانوا يأتون من الخارج لزيارة المســـيح الموعـــود عليه السلام مدمنين على تدخين النرجيلة، ولم توجد النرجيلة في قاديان في تلك الأيام إلا عند أحد أعمامي الذي كان دهريًا ملحدًا، ولكن هؤلاء الإخـــوة كـــانوا يضـــطرون للذهاب إليه من جراء هذه العادة القبيحة، ويسمعون منه كلامًا ضد المسيح الموعود عليه السلام. كان عمُّنا هذا بعيدًا عن الدين كلية، حتى يقول الخليفـــة الأول للمســـيح الموعود عليه السلام إنه سأله ذات مرة: هل صليت في حياتك؟ فأجابه وقال: إنني ســـليم الطبع منذ صغري. عندما كنتُ صغيرًا وكنتُ أرى الناس خافضي الرؤوس ورافعي الظهور في الصلاة، كنتُ أضحك عليهم وعلى غبائهم؛ أمـــا الآن فقـــد كـــبرت وأصبحت من كبار العقلاء، فكيف يمكن أن أصلي!

ومرةً حكى لنا أحد الإخوة أن بعض الأحمديين ذهب إلى عمّنا هـــذا ليـــدخن النارجيلة عنده، ثم رجع بعد قليل وهو يسبّ ويشتم. فقيل له: ماذا حصل؟ قـــال: إنني لا ألوم إلا نفسي إذ ألجأني إدماني على تدخين النارجيلة إلى الذهاب إلى هـــذا

* "نسوار" يشبه "النشوق" الذي يستنشقه البعض، و"القات" الذي يمضغه أهل اليمن؛ غير أنـــه يكون تبغًا مطحونًا يضيفون إليه بعض المواد ويضعونه في الفم أو يستنشقونه في بعض مناطق الهند وباكستان وأفغانستان. *(المترجم)*

الشخص الذي أسمعني ما أكره من الكلام ضد المسيح الموعود عليه السلام. فلولا هذه العادة السيئة لما ذهبتُ إليه ولما سمعت ضد سيدي كلامه القذر.

إذًا، فالنرجيلة أيضًا من لغو الأمور التي يجب على المرء تركها، وإذا كان لا يستطيع ذلك فليحاول جاهدًا أن لا يقترب أولاده منها، حتى إذا مات مات معه هذا الفعل السيئ في أسرته أيضًا.

والشيء الخامس من اللغو خوضُ المرء في حديث لا طائل وراءه، وسؤاله عما لا يعنيه. إن من العيوب الشائعة في بلادنا بكثرة أن الرجال والنساء على السواء يسألون فيما بينهم أسئلة لا علاقة لهم بها. فمثلاً تقول المرأة لصاحبتها: بكم اشتريت هذا الثوب؟ ومن أين اشتريت هذه الحلي؟ وما لم تعرف هي كل شيء لا يَقِرُّ لها قرار. كان المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا قصة امرأة اشترت خاتمًا، وظلتْ تنتظر لتسألها صاحباتها عن الخاتم، ولكن لم تسألها عنه أي منهن. فتضايقت وأحرقت بيتها. فجاءت النساء بعد الحريق، فقالت إحداهن: هل نجا شيء من الحرق؟ قالت مشيرة إلى خاتمها: لم يبق إلا هذا الخاتم. فقالت لها: متى صنعتِ هذا الخاتم الرائع؟ قالت: لو سألتني هذا السؤال من قبل لما حُرق بيتي.

أما الرجال فبمجرد أن يسلّموا على أحد يسألونه: من أين جئت؟ وأين تذهب؟ لماذا جئت؟ كم دخلُك؟ متزوج أم أعزب؟ كم عندك من الأولاد؟ مع أنهم لا صلة لهم بهذه الأمور. إن الإنجليز – مثلاً – لا يسأل أحدهم الآخر أسئلة شخصية مثل: أين تعمل؟ ما هو مستواك الدراسي؟ كم تكسب؟ بينما يعتبرون عندنا السؤال عن هذه الأمور إنجازًا هامًّا! الحق أن الذين يهتمون بالأمور الهامة لا يجدون الوقت للتفكير في توافه الأمور كهذه. لو كان الناس عندنا مهتمين بالدين، ولو كانوا يعلمون كيف أصبح الإسلام اليوم محاصرًا بين شتى الأخطار والمصائب، وكيف أن الدفاع عنه ونشره في الدنيا يتطلب منا تضحيات جسيمة، لما فكروا في هذا اللغو من الأقاويل والأعمال. عندما ينشب الحريق في بيت أحد فلا يجلس مع الناس ليجذب أطراف الحديث، بل يجري ويسعى كالمجانين لإطفاء النيران. ولو أن

المسلمين فكروا بجدية، ولو كانت عيونهم الروحانية مبصرة لعلموا أن حربًا طاحنة تدور اليوم بين الكفر والإيمان. لقد نـــزل الشيطان بكل جنوده وأسلحته في ساحة القتال، كما أن جيش الرحمن أيضًا قد جاء للقضاء عليه، وستدور بين الفـــريقين تلك المعركة المصيرية التي يُدَقّ فيها رأس الشيطان للأبد. وإذا لم يتجنب المسلمون هذه الأمور التي هي لغو وعبث، و لم يسعوا لإدراك مسؤولياتهم، فلن يكون أحـــد أتعس منهم حظًا.

وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

لم يخرّوا: خَرَّ: سقَط سقوطًا سُمع منه خريرٌ. الخرير يقال لصوت الماء والـــريح وغيرِ ذلك مما يسقُط من عُلُوّ. وقوله ﴿خَرُّوا سُجّدًا﴾ فاستعمالُ الخَرِّ تنبيـــهٌ علـــى اجتماع أمرين: السقوط وحصولُ الصوت منهم بالتسبيح. (المفردات)

وخَرَّ علينا قوم من بني فلان: هجَموا علينا من مكان لا يُعرَف. (الأقرب)

عميانًا: العميان جمعُ الأعمى. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى إن من علامات عباد الرحمن أنهم لا يتعاملون بآياتنـــا كالصُمّ والعُمْي، بل يستمعون لها بآذان واعية وينتفعون منـــها بعيـــون مفتوحـــة وبصيرة روحانية.

لقد قال العلامة أبو حيان في "البحر المحيط" عن قوله تعالى ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَـــا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ إن النفي هنا متعلق بالصُمّ والعُمي لا بالخرور. وهـــذا الأســـلوب شائع في اللغة العربية، فيقال مثلا: "لم يخرج زيد إلى الحرب جزِعًا، إنمـــا خـــرَج جريئًا". فليس المراد من هذه الآية أن عباد الـــرحمن لا يخـــرّون أمـــام الله تعـــالى متواضعين منكسرين، بل قد نفى الله تعالى هنا خرورهم في حالة الصمم والعمى،

والمراد أنهم "إذا ذُكّروا بها أكبّوا عليها حرصًا على استماعها، وأقبلوا على المذكِّر بها بآذانٍ واعية وأعينٍ راعية بخلاف غيرهم من المنافقين وأشباههم".

إن هذه الميزة لعباد الرحمن هي ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم بقوله ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾(السجدة:١٦). بينما قال الله تعالى عن الكافرين ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ ۞ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾(الصافات:١٤-١٥).. أي أن آذانهم لا تسمع، وعيونهم لا تبصر، إذ لا ينتفعون من النصح ولا يعتبرون برؤية آية من آيات الله تعالى.

إذًا، فإن المؤمنين الصادقين تكون آذانهم مفتوحة كما تكون عيونهم مبصرة أيضًا. إنهم يصغون إلى آيات الله تعالى ويعملون بها بدون توقف للانتفاع منها.

بيد أن هناك معنى آخر لهذه الآية وهو أن عباد الرحمن إذا تُليت عليهم آيات الله فلا يؤمنون بها إيمانًا أعمى، بل يؤمنون بها إيمانًا واعيًا مدعمًا بالأدلة والبراهين. وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة أيضًا في قوله تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٩).. أي قُلْ للكافرين يا محمد، إنني أدعو إلى الله على وجه البصيرة، ولا أقبل أنا وأتباعي أي قول بدون برهان، بل إن إيماننا مبني على إعمال الفكر والأدلة القطعية التي لا يحوم حولها الشك. ولذلك تجد القرآن الكريم قد ندد مرارًا بالذين يؤمنون بدون دليل فقال ﴿إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ﴾(النجم:٢٤). لقد تبين من هنا أن الإسلام قد أدان خصومه بأنهم يؤمنون بما لا يقوم عليه دليل سماوي ولا برهان عقلي، وإنما يتبعونه اتباعًا للأهواء والأوهام.

وهناك آيات عديدة أخرى في القرآن الكريم تركز على ضرورة الإيمان المبني على الأدلة والبراهين لا على الظنون والأوهام، كقوله تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(الأحقاف:٥).. أي أخبروني ما هي حقيقة الذين تدعونهم وتعبدونهم من دون الله تعالى؟ أرُوني ماذا خلقوا في

الأرض أو أثبتوا لي أن لهم شراكة في ملكوت السماوات. فأتوني بدليل على صدقهم قد ذكرته الأسفار السماوية النازلة قبل القرآن الكريم، أو بدليل علمي بينه لكم آباؤكم إن كنتم صادقين. بمعنى أن عقائدكم الوثنية لا يدعمها أي من الكتب السماوية ولا يدعمها أي دليل مبني على العلم والمنطق، فكيف يصحّ الإيمان بها إذن؟

كذلك يقول الله تعالى ﴿أَمْ أَنزلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾(الروم:٣٦).. أي هل بيدهم أي دليل آتاهم الله على صدق الشركاء الذين يتخذونهم من دون الله تعالى؟ فكيف يؤمنون بما لا دليل على صحته؟

ويقول الله تعالى أيضًا ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾(الأنعام:١٤٩-١٥٠).. أي قُلْ للكافرين أي دليل يمكنكم أن تقدّموه لنا على صحة دعاويكم؟ الواقع أنه ليس بيدكم أي دليل، وإنما تتبعون الأوهام والظنون. فقل لهم، يا محمد، إن الله تعالى يأمر العباد بالإيمان بما ثبت صدقه بالأدلة والبراهين بشكل واضح، أما الشيء الذي لا دليل عليه فلا يمكن أن يكون من عند الله تعالى.

كذلك يقول الله تعالى ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾(الأنعام: ١٠٥).. أي قد جاءكم من ربكم براهين بينة ساطعة، فمن أبصرَ هذه البراهين انتفع واستفاد، ومن لم يرها كان من الخاسرين.

لقد اتضح من هذه الآيات أن الإيمان الحقيقي عند الله تعالى إنما هو ذلك الذي يكون مبنيًا على البصيرة والذي يتمسك به المرء بعيون مبصرة وآذان واعية. أما الذي يؤمن بشيء بدون تحقيق ووعي حقًّا فإنه أصم وأعمى بحسب مصطلح القرآن الكريم رغم ادعائه بالإيمان، لأنه لا يكون راسخ القدم على دينه كما لا يكون له نصيب من بركات قرب الله تعالى.

ومن معاني قوله تعالى ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ أنهم إذا ذُكّروا بآيات الله لا يتعثرون مثل المنافقين والكافرين. لقد أخبر الله تعالى في القرآن الكريم خلال الحديث عن هجوم القبائل العربية كلها على المدينة في غزوة الأحزاب أن المنافقين

أخذوا يقولون ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً﴾(الأحزاب:١٣).. أي أن ما وعد الله ورسوله به من الفتح كان وعدًا باطلاً. أما المؤمنون فقال الله تعالى عنهم أنهم لما رأوا الأحزاب ازدادوا إيمانًا ويقينًا وقالوا ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾(الأحزاب:٢٣).. أي أنها تلك الجنود التي قد وعدنا الله ورسوله بها، وقد تحقق ما قال الله ورسوله. وهذا يعني أن المنافقين تعثروا عندما تحقق وعدُ الله تعالى، بينما ازداد المؤمنون إيمانًا وطاعة. كذلك إذا أظهر الله تعالى آية لنصرة دينه فلا ينتفع بها المنافقون الذين تحترق قلوبهم حسدًا وكمدًا برؤية هذه النصرة الإلهية، بل يسخرون ويستهزئون بها ويسعون جاهدين ليحطّوا من عظمة تلك الآية، أما المؤمنون فعندما يرون آيات الله تعالى يفتحون آذانهم الباطنية فيدخل النور الرباني في قلوبهم بقوة أشد، ويجلون عيونهم الروحانية فيزدادون معرفةً بالله وحبًّا له ﷻ.

وقد صرح الله تعالى عن المنافقين في آية أخرى فقال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾(محمد:٢٤).. أي برغم أن آيات الله تعالى تنزل كالمطر، وأن القرآن الكريم يحيي الموتى، وأن الخير حل محل الشر، وأن التقوى والطهارة أخذت مكان الفسق والفجور، وأن العدل والإنصاف جاء مكان الظلم والجور، والوفاء والإخلاص مكان الغدر، إلا أن المنافقين لا يتورعون عن شرورهم، مما يدل على أن عيونهم الروحانية عمياء وأن آذانهم الباطنية مسدودة. لو كانت آذانهم مفتوحة لتدبروا آيات الله واهتدوا بها، ولو كانت عيونهم مبصرة لارتدعوا عن شرورهم برؤية آيات محمد رسول الله ومعجزاته ﷺ، ولكنهم قد سدّوا طريقَي الهداية كليهما، لذلك أصبحوا عرضة للعنة الله رغم انضمامهم إلى جماعة المسلمين. فمهما ظهرت أمامهم الآيات العظيمة فليس دأبهم إلا أن يولّوا ظهورهم عنها كأنه لم يحدث شيء إطلاقًا، ويزدادون نفاقًا. ولكن المؤمنين ليسوا مثلهم، بل تُغْضي عيونهم أمام رهبة رؤية آياته ﷻ وتصغي آذانهم إلى أحكامه تعالى. فعندما يرتفع النداء من الإسلام فلا يتلقونه بآذان صمّاء، بل يستمعون له وكأنهم كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. وكلما تشاهد أعينهم آية ربانية لا يعرضون عنها، بل يفرحون بها شاكرين بأن الله تعالى يجلّي عليهم بوجوده من خلال آياته البينات.

باختصار، فإن المؤمن الصادق يزداد قربًا من الله تعالى عند ظهور آياته، وأما الكافر أو المنافق فيزداد كفرًا ونفاقًا ويصبح أسوأ حالاً من ذي قبل.

بيد أن ﴿آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ هنا لا تعني الآيات القرآنية أو المعجزات الإلهية فقط، بل تعني أيضًا جميع العلماء الربانيين والمصلحين الذين يبعثهم الله تعالى في الأمة ليهدوا الناس إلى الصراط المستقيم بعد انحرافهم عنه. فلا شك أن هؤلاء القوم أيضًا يُعَدّون من ﴿آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كما سمى الله تعالى المسيح وأُمَّه – عليهما السلام – آيةً في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾(المؤمنون:٥١).

وقد سبق أن بيّنّا عند شرح الكلمات أن "الخرور" يعني الهجوم أيضًا، وعليه فإن الله تعالى قد نبه بقوله ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أن من علامات عباد الرحمن أن الله تعالى إذا بعث مأمورًا أو مصلحًا من عنده إبّانَ غلبتهم وحكمهم ليحذرهم من تقصيراتهم، فلا يهجمون عليه مغرورين بقوتهم وغلبتهم غير مبالين بالعواقب، كما فعل بعض الملوك المسلمين التعساء ببعض أولياء الأمة، فصبّوا عليهم صنوف الأذى والتعذيب. كلا، بل إن عباد الرحمن يسارعون إلى إصلاح أنفسهم وتدارُك أخطائهم بدون تردد. إنهم لا يفكرون بأنهم ذوو قوة ومنعة وأن الذي ينصحهم شخصٌ ضئيل الشأن، بل إنهم يُصغون إليه كونه مبعوثًا من عند الله تعالى، مدركين أنهم إذا لم يستجيبوا لندائه فإن الله تعالى سيدمر دنياهم مع عاقبتهم. وكأن عباد الله الأطهار يظلون فقراء إلى الله ومستعدين لتلبية ندائه، بعيدين كل البعد عن الكبر والأنفة، رغم كونهم ملوكًا على الناس.

وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ

بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا خَٰلِدِينَ ﴿٧٦﴾ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

إمامًا: الإمام: مَن يُؤتمّ به.. أي يُقتدى به. (الأقرب)

غرفة: الغرفة: العلِيّة (أي الحجرة في الطابق العلوي)؛ السماء السابعة. (الأقرب)

صبروا: الصبرُ: تركُ الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله؛ فإذا دعا اللهَ العبدُ في كشف الضرّ عنه لا يُقدَح في صبره. وقال (أبو البقاء) في الكليات: "الصبر في المصيبة". وصبَر الرجلُ على الأمر: نقيضُ جَزِعَ أي جَرُؤَ وشجُع وتجلَّدَ. وصبَر عن الشيء: أمسكَ؛ وصبَر الدابةَ: حبَسها بلا علف؛ وصبرتُ نفسي على كذا: حبَستُها، تقول: صبرتُ على ما أكرَهُ وصبرتُ عما أحبُّ. (الأقرب)

"وفي البصائر للمصنف: الصبر في اللغة الحبسُ والكفُّ في ضيق. فالصبر: حبسُ النفس عن الجزع وحبسُ اللسان عن الشكوى وحبسُ الجوارح عن التشويش". (تاج العروس)

فالصبر يعني: الامتناع عن السيئات، والثبات على الحسنات، وتحمُّل المشاقّ في سبيل الله تعالى بدون جزع وفزع لا باللسان ولا بالجوارح ولا بأي طريق آخر.

التفسير: يقول الله تعالى إن من علامات عباد الرحمن أنهم يدعون الله دائما ويقولون: ربنا أعطِنا قرة أعين من قِبل أزواجنا وأولادنا، واجعَلْنا للمتقين إماما.

ومن المؤسف جدًّا أن المسلمين نسوا هذا الدعاء أيضا زمن حُكمهم وغلبتهم، وغفلوا عن تربية أجيالهم؛ فخرجت دُولهم من أيديهم واحدة تلو الأخرى، واستولى الأغيار على بلاد المسلمين. ولو أنهم تحلّوا إبّان حكمهم بهذه الأخلاق الفاضلة، وظلوا يدعون الله تعالى ليل نهار: ربنا أعطِنا من أولادنا قرة أعين، ولم يتهاونوا في تربية أجيالهم لما وُلد في أمة المصطفى ﷺ أولئك الملوك الفاشلون الذين اتخذوا تيجانهم وعروشهم سبيلا للانغماس في الملذات والترف، وأضاعوا بسوء أعمالهم

تلك الدول العظيمة التي قد نالها آباؤهم بتضحيات كبيرة. إنما أصيب المسلمون بهذا التردّي والانحطاط لأنهم نسوا واجبات عباد الرحمن، ولما نسوا الله تعالى نسِيهم وانتزع منهم الحُكم والمُلك.

لا شك أن ما حصل مؤسف ومؤلم جدًّا، ولكن المسلمين لو اعتبروا بما حدث بهم في الماضي، واهتموا بتربية أجيالهم اليوم، داعين الله تعالى أن يثبّت أولادهم على التقوى والصلاح في حياتهم وبعد مماتهم، ويجعلهم قرة أعين لهم دومًا، لكان بوسعهم أن يستردّوا ذلك المتاع الذي فقدوه. عليهم أن لا يفقدوا الهمم، عليهم أن لا يدَعوا القنوط يقترب منهم، لأن الله تعالى يقول هنا إن المؤمنين لا يرضون بالمراتب العادية، بل يدعون الله تعالى أن يجعلهم أئمة، ولكن أئمة للمتقين لا لغيرهم.

قد يقول قائل هنا: كيف يمكن أن يصبح كل مؤمن إمامًا في وقتٍ واحد؟

فليكن معلومًا أن الرجل لو سعى لتكون زوجته ملمّةً بمسائل الدين ومواظِبةً على الصلاة وتساهم في الخدمات الدينية وتربي أولاده تربية حسنة، أصبح الرجل إمامًا والزوجة مأمومة. كذلك إذا اهتمّت الأم بتربية أولادها تربية عالية صارت هي إمامًا وأصبح أولادها مأمومين، وكل ما يفعله أولادها من خير سيُكتب في سجل أعمالها. إن الأم ستكون راقدةً في قبرها، ولكن أولادها حين يصلّون صلاة الفجر، فستكتب الملائكة في السجلات أنها هي التي تصلّي الفجر. كذلك لو أنها ربّت أولادها على أداء صلاة التهجد، فعندما يصلّون التهجّد ستكتب الملائكة صلاتهم هذه في سجل أعمالها أيضًا. ونفس الحال بالنسبة للرجال. فكلما تسببوا في هداية الناس أكثر، كانوا شركاء في أعمالهم الحسنة، وهكذا يصبحون أئمة والآخرون مأمومين.

إذًا، فإن الله تعالى قد بيّن هنا أن عباده الأطهار لا يبرحون يدعون الله تعالى لرقي أولادهم في أمور الدين والدنيا، كي لا يظل نور الإيمان الذي ينير قلوبهم محصورًا في أنفسهم فقط، بل ينتقل من جيل إلى جيل إلى يوم القيامة، ولا يأتي زمن يركن فيه أولادهم أو أتباعهم وتلاميذهم إلى الدنيا يؤثرونها على أحكام الله

ورسوله. لقد ذكر الله تعالى من أكبر محاسن إسماعيل عليه السلام أنه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾(مريم:٥٦).. لكي يدوم حُكم الله الأحد الواحد في الدنيا، ولتقام الصلاة وتؤدَّى الزكاة بدون انقطاع إلى الأبد. وهذا هو واجب المؤمن وفريضته، أي عليه أن لا يتغافل أبدًا عن تربية أولاده تربية حسنة، وأن يدعو الله تعالى دومًا بأن يتولى بنفسه هو تعليمهم حتى يحملوا لواء الإسلام عاليًا، ويرفعوا اسم محمد رسول الله ﷺ في العالم دائمًا أبدًا.

ثم يقول الله تعالى ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً۝ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾.. أي أن الذين يعملون هذه الحسنات ويسعون جاهدين لتربية أجيالهم تربية صالحة، ويدعون الله لهم ليل نهار، سنعطيهم مقامات رفيعة يوم القيامة جزاءً على صبرهم، أي على امتناعهم عن السيئات وقيامهم بتربية أولادهم تربية حسنة وتثبيتهم أجيالهم على طريق الصلاح والخير. كما يتلقون رسالة سلام من الله تعالى، ولن يتلقوها مرة واحدة، بل سيصلهم السلام من الله تعالى باستمرار. وكأنهم كما حفظوا أولادهم في الدنيا من شتى السيئات من كذب وغش وسباب واغتياب وخيانة وظلم وفساد وسفك دماء وسرقة وبهتان واستهزاء وانحياز ولغو وما إلى ذلك، وبالتالي نشروا السلام في الدنيا، كذلك سيقول الله لملائكته حين يدخلون الجنة: هؤلاء عبادي الذين تلقى الناس من قبلهم السلام دائمًا، فاذهبوا بهم وأدخلوهم في دار السلام التي يتمتعون فيها بسلام دائم.

ثم إن الغرفة تعني السماء السابعة أيضًا كما بيّنا عند شرح الكلمات، وعليه فستعني هذه الآية أن عباد الرحمن الذين عاشوا في الدنيا بتواضع وعدل وإنصاف، وأطاعوا أحكام الله تعالى وقت النهار، وظلوا في ظلمات الليل سُجّدًا وقيامًا يدعون الله تعالى ويتوسلون إليه في بكاء وابتهال، فإن الله تعالى سيرفع درجاتهم يوم القيامة حتى السماء السابعة.. وبتعبير آخر إنهم سيقيمون مع إبراهيم عليه السلام لأنه مقيم في السماء السابعة نفسها (مسند أحمد: الجزء الرابع ص ٢٠٧: حديث مالك بن صعصعة). وقد أشار النبي ﷺ أيضًا إلى هذا المعنى في حديث له إذ قال: "إذا تَواضعَ العبدُ رفَعه اللهُ

إلى السماء السابعة" (كنز العمال مجلد ٢ ص ٢٥: في الأخلاق من قسم الأقوال، الترمذي: أبواب البر والصلة، باب ما جاء في التواضع). وحيث إنهم قد تذللوا وتواضعوا لوجه الله تعالى، فإنه سيمنحهم أرفع مقام وأسمى منزلة من قربه تعالى.

ولما كانت هذه الآيات تختص بفترة يهب الله فيها للمسلمين الحُكم والغلبة على الأرض، فإن قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ يعني أن عباد الرحمن الذين يتحلون بالأخلاق الحميدة حتى إبان حكمهم على العالم، فلا يشنّون الهجوم على الدول الضعيفة مغرورين بسلطانهم وقوتهم، ولا يهضمون حقوق الآخرين، ولا يقضون لياليهم في الانغماس في الملذات من شرب خمر ورقص وغناء، بل يبيتون في ذكر الله وعبادته، ويدعونه أن يحفظهم من التردي والانحطاط، وينقذهم من جحيم السيئات والغفلة والتساهل في الدين والبعد عن الله تعالى، ولا يسرفون في النفقات مهدرين أموال القوم في الملذات، ولا يبخلون في إنفاقها في محل الإنفاق، أي لا ينفقونها في غير محلها، كما لا يكنزونها بحيث يموت القوم جوعًا وإفلاسًا، فلا ينفقونها للنهوض بالقوم على إنشاء المدارس والكليات وحفر الآبار وبناء المستشفيات ومكاتب البريد وإنشاء المصانع وما إلى ذلك؛ وأنهم يعملون جاهدين لإقامة التوحيد وتبليغ الإسلام ونشره على نطاق واسع؛ وأنهم لا يسفكون الدماء بغير حقّ مغرورين بقوتهم؛ وأنهم لا يزنون، ولا يشهدون شهادة الزور إرضاءً لرؤسائهم وتملّقًا لهم؛ وأنهم يحترزون من اللغو كالسينما والخمر والميسر والتدخين والمخدّرات، وأنهم إبان حكمهم وغلبتهم عندما يسمعون اسم الله تعالى ترتعد فرائصهم خشية وخوفا، وأنهم كلما نصحهم أحد باسم الله تعالى يستمعون له ساعين لتدارك أخطائهم، وأنهم يدعون دائمًا بأنك ربنا قد وهبتَ لنا الحكمَ بفضلك، فنسألك الآن أن تكون أجيالنا أيضا أهلاً للحُكم، فترفع اسمك عاليًا وتكون لنا قرّة أعين؛ فإن الله تعالى لن يضيع هذه الحسنات العظيمة والأدعية المتواضعة من قبل هؤلاء العباد الأطهار، بل سيمنحهم بفضله الغلبة على الدنيا كلها؛ ولن تبقى بقعة من بقاع الأرض إلا وتدوّي باسم الله ورسوله.

قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٨﴾

شرح الكلمات:

ما يعبأ: عَبَأَ له: قصَد له. ما عَبَأْتُ به شيئا: لم أعدّه شيئا. ما عبَأْتُ به: ما كان له عندي وزن ولا قدر. ما أعبأ به: ما أُبالي به (الأقرب).

لزامًا: اللزامُ: الموتُ؛ الحسابُ؛ المُلازم جدا؛ الفصلُ في القضية. (الأقرب)

التفسير: بعد ذكر علامات عباد الرحمن يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: عليك أن تبلّغهم رسالتي أنهم إذا صاروا عباد الرحمن كما وصفتهم من قبل، فسوف يستحقون كل إعزاز وتكريم عندي، أما إذا لم يواظبوا على الدعاء والاستغفار، و لم يجعلوا التواضع والخشوع والإنابة إلى الله تعالى شعارا لهم، فلن يبالي الله بهم.

وإن حرف ﴿ما﴾ في قوله تعالى ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾ يمكن أن تكون نافية أو استفهامية، لكن المفهوم واحد في الصورتين. فلو كانت نافية فالمعنى: قل لهم، أيها الرسول، إنكم إذا لم تدعوا الله تعالى و لم ترجعوا إليه بالتواضع والخشوع، فإن الله تعالى لن يبالي بكم. وأما إذا كانت ﴿ما﴾ استفهامية فالمعنى: يا أيها الرسول، قل لهم إنكم إذا لم تدعوا الله تعالى و لم تتضرعوا إليه، فماذا يبالي الله بكم، وما حاجته إليكم؟ إنه في غنًى عن العالمين، بل يسد حاجات الجميع لأنه صمدٌ.

والحق أن الإنسان لو تدبّر في حالته لأدرك بسهولة أن الله تعالى ليس بحاجة إليه بتاتًا، بل الإنسان هو المحتاج إلى الله في كل حين وآن. يظن بعض الناس لغبائه أنه يمن على الله تعالى بصلاته وزكاته وحجه – والعياذ بالله – ومن أجل ذلك تجده إذا أصابته مصيبة قال: لا أدري لماذا أصابني الله بهذه المصيبة! مع أني أصلي وأصوم وأحجّ وأزكّي أموالي وأعمل بأحكام الدين الأخرى؟ وكأنه يظن في نفسه أن الله تعالى قد أساء معاملته.

كان المسيح الموعود عليه السلام يقول: إن شخصًا مات ولد له، فزاره صديقه يعزّيه، فصرخ وأخذ يبكي بصوت عال ويقول: إن الله قد ظلمني ظلما عظيما. وكأنه كان يقول أن الله تعالى قد هضم حقّه – والعياذ بالله – لذلك كان يشتكي منه. على المرء أن يفكّر كيف يمكن أن يكون للعبد حق على الله تعالى؟ إنني أتعجب دائما من الذين يتفاخرون بصلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجّهم وتقواهم وصلاحهم، ثم إذا أصابتهم مصيبة يصرخون ويقولون: إن الله تعالى قد ظلمنا ظلما عظيما. ولكن ذلك الشاعر الهندي الشهير الذي كان جاهلاً بالدين ومدمنًا على الخمر، قال في ساعة حقٍّ:

جان دی، دی ہوئی اسی کی تھی

حق تو یہ ہے کہ حق ادا نہ ہوا

(ديوان غالب ص ١٥)

أي قد ضحيتُ بنفسي في سبيل الله تعالى، ولكنها كانت هبة منه تعالى، فالحق أنني لم أستطع أن أؤدي حقّه عز وجل.

على الإنسان أن يفكّر من أين جاءه كل ما عنده؟ عليه أن ينظر إلى حقيقة ذاته وقدره. فهل عنده شيء يمكن أن يقول بأنه ملكٌ له حقًّا؟ فمثلا يقول الإنسان: زوجتي، ولكن هل فكّر من أين جاءته زوجته؟ ثم يقول: أولادي، ولكن هل فكّر من ذا الذي آتاه الأولاد؟ ونفس الحال بالنسبة إلى كل ما يظن أنه ملكٌ له من دارٍ وأرضٍ وغيرهما من الأشياء. لو فكّر المرء في حقيقة هذه الأشياء لأدرك بسهولة أنها ليست ملكًا له، إنما هي عطايا وهبات من الله تعالى؛ ومع أن العطية لا تُستردّ، إلا أن كل ما يُعطى الإنسان يُستردّ منه في نهاية المطاف؛ فثبت أن ما عند الإنسان ليس عطيةً أيضًا، إنما أُعطِيَه على سبيل الإعارة، ومن أعارك شيئًا يحقّ له أن يستردّه منك متى شاء. وقد بيّن أحد الشعراء العرب هذه الحقيقة في الأبيات التالية:

أنت الذي ولدتك أمك باكيا والناس حولك يضحكون سرورا

فاحرص على عمل تكون إذا بكوا في وقت موتك ضاحكا مسرورا

أي أنت نفس الشخص الذي ولدتْه أُمُّه وهو يبكي – لأن كل مولود يبكي بعد الولادة – وكان الجالسون حولك يضحكون فرحة بميلادك. فعليك الآن أن تعمل أعمالا صالحة حتى إذا متَّ كنتَ ضاحكًا مسرورًا بأنك ذاهبٌ إلى ربّك لتنال منه جزاءً حسنًا على أعمالك، بينما يكون الناس حولك يبكون لأن إنسانا صالحًا قد انتُزع من بينهم.

فيقول الله تعالى ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾.. أي ما هو قدْرُكم وما هي حقيقتكم حتى يكترث الله لكم؟ إذ لولا أن الله تعالى قد هيأ الأسباب ليعود بالإنسان إليه منّةً وإحسانا منه، ولولا أنه تعالى أخذه من الفرش إلى العرش، فما قيمة الإنسان في حدّ ذاته حتى يوليه الله هذه العناية؟ إنما هو فضل الله تعالى وإحسانه أنه رفع الإنسان وكتب له الرُقيّ.

وقوله تعالى ﴿لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ يعني أيضا "لولا دعاؤه إياكم لطاعته".. أي لولا أن الله تعالى فرض على نفسه أن يدعو عباده لطاعته ويهيئ لهم أسباب الرقيّ لم يكن قدرهم أكثر من حفنة من تراب. إنه لمن فضل الله البحت أنه يبعث المأمورين والمصلحين من عنده عند ضلال الناس لكي يعودوا بالضالين التائهين إلى صراطه المستقيم ثانية. فيُعزّ الله تعالى أمما منهارة بواسطة هؤلاء المصلحين، ويجعل قومًا خاملي الذكر أساتذةً للعالم وملوكا. فلولا أن الله تعالى أراد أن يُنزل وحيه للناس، لما تفضّلَ عليهم لهذه الدرجة ولما خلَق لهم السماوات والأرض، فإنما هو فضل الله تعالى ومنّته أنه قد أعزَّ الناس وأكرمهم بدعوته إياهم إليه. خذوا مثلا النبي ﷺ، لقد كان يعيش خاملَ الذكر منقطعًا عن الناس، عابدًا ربه وحده في غار حراء، معرضًا عن كل أسباب الرقي الماديّ، ولكن ملاك الله تعالى يأتيه ويقول له: قُمْ، فإن الله يدعوك. فأخرجه الله تعالى من زاوية الخمول وجعله ملِكًا على العالم، ووهَب له الرقي والازدهار حتى أصبح طابعه هو الطابع الغالب على الدين والسياسة والحضارة والتمدّن، وصار خدامه أساتذة للعالم في كل فن ومجال بدون أن يلتحقوا بالجامعات أو يقوموا بالبحوث في المختبرات. وسبقوا العالم في كل مضمار دخلوا فيه. إذا لم يكن هذا موهبة من الله تعالى فما هو إذا؟

يقول أحد الصحابة إن النبي ﷺ أعطاه درهمًا ليشتري له كبشًا ليقدّمه قربانًا. ففكر الصحابي أنه لن يجد في المدينة بهذا المبلغ إلا كبشًا واحدا، ولكنه سيشتري به في الريف اثنتين. فذهب إلى قرية واشترى بالدرهم كبشين. وعندما رجع إلى المدينة سأله أحد: هل تبيع لي أحدهما؟ قال: نعم. فباعَه الكبش بدرهم، ورجع بالكبش الآخر والدرهم، وحكى للنبي ﷺ قصته، فسرّ ﷺ ودعا له. علمًا أن العرب لم يكونوا تجّارا ماهرين كالفرس والرومان، ولكن هذا الصحابي يقول إنه ببركة دعاء النبي ﷺ أصبح خبيرًا في التجارة حتى إنه لو اشترى التراب باعه ذهبًا، حتى كان الناس يُكرهونني على أن آخذ أموالهم لأتاجر بها، ولكني كنت لا أستطيع ذلك.

هذا مثال حيّ على صدق قوله تعالى ﴿لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ لم يكن وراء ما فعل العرب خبرتُهم وذكاؤهم، إنما نداء الله تعالى الذي ارتفع، فلبّاه النبي ﷺ، فتقدّم ببركة ذلك وارتقى، فتبعه أتباعه فراحوا يتقدمون ويزدهرون. شأنهم شأن المرء الذي يركب حصانا، فيركبه معه سرواله وقميصه وثيابه الأخرى. ثم لم يزل الصحابة يتقدمون ويتقدمون حتى سقطت في أيديهم خزائن قيصر وكسرى، وأصبحوا ملوكا على بلاد عظيمة. وكما قلت إن هذا كله لم يكن إلا تحقيقًا لقوله تعالى ﴿لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾، إذ لم تكن بعثة الرسول ﷺ إلا نتيجة لفضل الله تعالى، ثم لما تقدّم النبي ﷺ تقدّم وراءه من تبِعه، ومن أجل هذه الحكمة نفسها قال الله تعالى ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة:١١٩)، ذلك لأن الله تعالى حين يفتح للصادقين بوابة رحمته يدخل منها من كان في معيّتهم أيضا.

والمعنى الثاني لقوله تعالى ﴿لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ هو "لولا تضرُّعكم إليه".. أي لن يبالي الله بكم إذا لم تدعوه وتبكوا وتبتهلوا وتخرّوا في حضرته في تواضع وخشوع، وتقولوا: ربنا، ليس لنا أي حق عليك، ولكن أحسِنْ إلينا كرمًا وفضلا منك.

والحق أن جوهر الدين وروحه وخلاصته هو الدعاء. ولكن لا يعني الدعاء أن يردد الإنسان بلسانه بعض الكلمات ويظن أنه قد دعا بالفعل. كلا، إنما الدعاء أن يذوب الإنسان على العتبة الإلهية، والدعاء إنما يعني أن يموت الإنسان موتًا، والدعاء إنما يعني أن يصبح الإنسان نموذجًا متجسدا للتذلل والتواضع. إن الذي يردد بعض

الكلمات على سبيل التقليد بدون أن يتولد فيه التذلل والخشوع، وبدون أن ترتعش كل ذرة من قلبه وعقله وكيانه بموجات كهربائية لمحبة الله تعالى، فإنه يسخر بالدعاء، ويضيّع وقته، بل يثير غضب الله تعالى. فلا تدعوا دعاءً يخرج من حلقومكم فقط دون أن يُحدث وجدًا ولوعة في بواطنكم. إنه ليس دعاءً، بل هو أداة الشيطان تثيرون بها غضب الله وقهره. عندما تدعو ينبغي أن تكون كل ذرة من كيانك شاهدة على جلال الله تعالى، وأن تعكس كل خلية من دماغك قدرة ربّك؛ وأن تكون كل كيفية من وجدانك تتمتع بعنايات ربّك؛ عندها، وعندها فقط، تُعتبر من الذين يدعون الله تعالى حقا.

إن هذه الحالة من الدعاء تبدو صعبة المنال، ولكن الذي يبني إيمانه على عشق ربّه تعالى، فلا شيء أسهل عليه من هذه الكيفية من الدعاء، بل إن هذه الحالة تدخل في خواص طبعه، فيتمتع بها كل حين وآن. إن مثل هذا الإنسان لا يحتاج أن يبتعد عن الناس ليجلس على السجاد فيدعو الله تعالى في الخلوة، بل إنه يدعوه في الخلوة والجلوة. عندما يتكلم هو بكلام آخر أو يرى مشاهد أخرى، فإن روحه تكون ساجدة على عتبة مالكه وخالقه، وتسأله الرحمة له وللدنيا كلها.

ولكن الله تعالى يقول ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾.. أي أنكم ما دمتم قد كذبتم رسالة الله، فلا بد أن تذوقوا وبال ذلك، وسترون أن عذابه سيلازمكم.. أي سيطول بكم، فتُضرب عليكم الذلة والمسكنة في الدنيا، كما تبقى أجيالكم أيضا محرومة من كل بركة.

ما أشدَّ هذا الوعيدَ! وما أخطرَ هذا الإنذارَ! ليت أهل الدنيا يدركون هذا الأمر. ليتهم لا يدمّرون عاقبتهم. ليتهم يصلحون أنفسهم. ليتهم يصغون إلى كلام الله تعالى، حتى يعتني بهم ذلك الواحدُ الأحد، فيطهّر قلوبهم، ويحتضنهم في أحضان حبّه مرة أخرى. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.